

مجّد أبو عامر | *Majd Abuamer

النكبة ونشوء الشتات الفلسطيني في الكويت

The Nakba and The Emergence of the Palestinian Diaspora in Kuwait

عنوان الكتاب:	النكبة ونشوء الشتات الفلسطيني في الكويت.
المؤلف:	شفيق الغبرا.
الناشر:	المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
مكان النشر:	الدوحة/ بيروت.
تاريخ النشر:	2018.
عدد الصفحات:	342 صفحة.

* باحث مهتم بقضايا التحوّل الديمقراطي. حاصل على شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من معهد الدوحة للدراسات العليا.

Researcher in Political Science specialising in Democratic Transition. He received a Master's degree in Political Science and International Relations from the Doha Institute for Graduate Studies.

مقدمة

يندرج كتاب النكبة ونشوء الشتات الفلسطيني في الكويت في فضاء الدراسات الأكاديمية حول اللاجئين الفلسطينيين والشتات الفلسطيني التي اختلفت في مقارباتها؛ فمنها ما ركز على المعاناة وعملية التطهير، ومنها ما درس مرحلة النكبة، في حين اهتمت مجموعة أخرى بالمخيمات وحركات المقاومة داخلها، وبحث أخرى في الأوضاع القانونية للاجئين الفلسطينيين في ضوء القانون الدولي والمنظمات الدولية، بينما تناولت دراسات أخرى خصوصية اللجوء الفلسطيني، وقضايا الهوية والاندماج، إضافة إلى غيرها من الحالات المحددة⁽¹⁾. وفي هاتين المجموعتين الأخيرتين، وانخراطاً في النقاش العلمي حول مجتمعات الشتات عامةً، والشتات الفلسطيني خاصةً، تدرج مساهمة أستاذ العلوم السياسية شفيق الغبرا، لتسلط الضوء على موضوع ما يزال مفتوحاً للبحث، ألا وهو تجربة الشتات الفلسطيني في الكويت، من خلال بحث نشأتها وارتباطها المباشر بالنكبة الفلسطينية عام 1948، متوسلاً تقنية التاريخ الشفوي.

وحدير بالذكر أن الفلسطينيين قد ذهبوا للعمل في دول الخليج العربية منذ ثلاثينيات القرن العشرين، وأن موجات الهجرة ازدادت بعد نكبة 1948، ومن ثم بعد نكسة عام 1967، وخصوصاً في ظل عدم توافر فرص العمل في دول طوق فلسطين. وفي هذا الشأن، يشار إلى عام 1936 بوصفه معلماً زمنياً لأول حضور فلسطيني في الخليج، وهو

(1) آري كنودسن، وساري حنفي، اللاجئون الفلسطينيون في المشرق العربي: الهوية والفضاء والمكان، ترجمة ديماء الشريف، مراجعة وتقديم جابر سليمان (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015)، ص 47-48.

تاريخ وصول أول بعثة تضم خمسة مدرسين فلسطينيين إلى الكويت، وذلك بطلب من الشيخ عبد الله جابر الصباح إلى مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني⁽²⁾. ويمتاز وضع الفلسطينيين في هذه البلدان بخصوصية تختلف عن باقي البلدان العربية؛ إذ لم تتعامل دول الخليج العربية مع الفلسطينيين بصفتهم لاجئين. يُضاف إلى ذلك أن وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى «الأونروا»، لا تعمل في أي دولة من هذه الدول التي لم يُصدر أي منها تشريعاً يعطي الفلسطينيين حماية أو أفضلية في مسألة الإقامة أو العمل، بل إنهم عوملوا كأبي موظف أجنبي⁽³⁾.

وفي ذلك، يبحث المؤلف في كتابه تجربة الجماعة الفلسطينية، وآليات الصمود وتشكلها الاجتماعي - الاقتصادي في الشتات، من خلال دراسة حالة الفلسطينيين الوافدين إلى الكويت بعد نكبة 1948، بوصفها نموذجاً يفهم بواسطته سلوك باقي الجماعة الفلسطينية في مختلف أماكن وجودها. وفي ذلك، أيضاً، يدرس الاستراتيجيات المتبعة في البقاء وإعادة تكوين النسيج الاجتماعي الفلسطيني وشبكاته، بعد أن دُمّر مادياً باقتلعه من جغرافيته وتشيتت جماعته، بالتركيز على العائلة والشبكات العائلية العابرة للأوطان؛ أي العلاقات والروابط غير الرسمية من حيث هي وحدة رئيسة للبقاء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وإعادة التنظيم، وهو ما يمكن اعتباره الإسهام العلمي

(2) سمير البرغوثي، «الفلسطينيون في الخليج»، مجلة تسامح، العدد 19 (2007)، ص 59.

(3) أنيس فوزي قاسم، «الوضع القانوني والسياسي للجاليات الفلسطينية في بلدان مجلس التعاون لدول الخليج العربية»، في: بلدان مجلس التعاون لدول الخليج العربية: التحديات الاجتماعية والاقتصادية (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016)، ص 163-169.

الرغم من إشكالياته في المناهج التاريخية، تفاعلاً مباشراً بين الراوي والباحث، ويستفيد من الذاكرة التي قد تعتبر مصدراً يثري المصادر المكتوبة ويكملها، وهو الأمر الذي لا مناص منه لفهم تجربة الشتات الفلسطيني التي تفتقد إلى أرشيفها الخاص لأسباب مفهومة.

يقع الكتاب في عشرة فصول. في الفصل الأول، يحدد المؤلف الإطار النظري للدراسة، مراجعاً أدبيات الهجرة، ومحدداً المفاهيم الرئيسة للدراسة. وفي الفصل الثاني، يقدم مدخلاً تاريخياً يروي فيه حكاية النكبة الفلسطينية. أما في الفصل الثالث، فيدرس بداية هجرة النخبة الفلسطينية إلى الكويت، والعوامل التي بنيت الشتات الفلسطيني في الكويت. وفي الفصل الرابع، يسلط الضوء على دور التماسك العائلي والشبكات الاجتماعية في تكون هجرة متسلسلة. وينتقل في الفصل الخامس إلى خصوصية هجرة الفلاحين الفلسطينيين، بما في ذلك طرائق التهريب. أما في الفصل السادس، فيتطرق إلى العائلة الفلسطينية بوصفها منظومة عابرة للأوطان، من خلال تتبع سير ثلاث عائلات فلسطينية كحالة دراسية. وفي الفصل السابع، يحلل الوظائف والأنماط السلوكية للشبكات العائلية الفلسطينية، بما في ذلك الأمن العائلي الجماعي، وأنماط السكن، وأحوال الزواج. أما في الفصل الثامن، فيشير إلى أشكال التكافل الفلسطيني في الشتات عن طريق ظهور صناديق القرى والبلدات والمراكز العائلية. وفي الفصل التاسع، يعالج أثر غزو العراق للكويت في العلاقة بين الفلسطينيين والكويتيين. وأخيراً، يقرأ المؤلف في الفصل العاشر مستقبل الشتات الفلسطيني في الكويت، وحاله بعد غزو العراق للكويت.

للدراية؛ أي تقديم مقارنة نظرية لفهم مجتمعات وشعوب اللادولة، من خلال ديناميات روابط التضامن الاجتماعي. وأثناء ذلك، نهتمّ بالإجابة عن سؤالين رئيسين، هما: كيف عملت الروابط العائلية، وعلاقات القرية/ البلدة، في الحفاظ على النسيج الاجتماعي الفلسطيني وإعادة بنائه في دول جديدة؟ ولماذا لم يندمج الفلسطينيون مع شعوب البلدان العربية المضيفة، ومن ثم ربما ينسجم اندماجهم النكبة المتحكمة في وجودهم المادي - المعنوي؟ (ص 14)، كما نهتمّ بسؤالين فرعيين، هما: ما أثر الغزو العراقي للكويت في طبيعة العلاقة بين الفلسطينيين والكويتيين؟ وكيف أصبحت الجالية الفلسطينية بلا تأثير في الكويت؟ (ص 21).

اعتمدت الدراسة في مصدر معلوماتها على مقابلات شخصية مع أشخاص رووا ما عايشوه (يصل عددها إلى 110 من المقابلات)، بحث من خلالها المؤلف دور الشبكات العائلية في التأقلم والبقاء، وتوثيق التجربة الجماعية لفلسطيني الكويت، بما ينطوي عليه ذلك من أسباب الوصول، وطرائق العبور/ التهريب نحو الكويت، ومنها ما يشبه ما أورده غسان كنفاني في روايته رجال في الشمس⁽⁴⁾، وبدأت المقابلات مع أوائل الفلاحين الواصلين إلى الكويت في خمسينيات القرن الماضي، وقادت كل مقابلة إلى أخرى لتفتح سيوراً جديدة للبحث، وتكشف آليات تواصل العائلة الفلسطينية العابرة للأوطان، وكيفية قيام الشبكة العائلية بإعادة النسيج الاجتماعي والبقاء (ص 16-19). ويشار هنا إلى المنهجية المستندة إلى التاريخ الشفوي الذي يوفر، على

(4) غسان كنفاني، رجال في الشمس، الآثار الكاملة. مع 1: الروايات (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1972).

أولاً: العائلة والشبكة الفلسطينية في سياق الادولة

رحلة اللجوء، وتفرقت العائلات في بلدان الشتات، وأصبحوا يعيشون على الهامش سياسياً واقتصادياً واجتماعياً (ص 62-63).

وفي هذا الصدد، يعتبر المؤلف مفهوم اللادولة متحكماً في الوضع الفلسطيني، ويذكر أن لجوء الفلسطينيين إلى الكويت لم يكن لجوءاً تقليدياً؛ حيث إنه ليس من مكان أقل تقدماً إلى آخر متطور، بل هو خيار عمل في بلد عربي في طور النمو (ص 14-16). ويعرف المؤلف اللادولة Statelessness بأنها «أي خسارة للجنسية والحقوق المتصلة بها، بواسطة إسقاط وسحب الجنسية من جهة ما، أو إسقاطها نتيجة التطهير العرقي والتهجير الجماعي مع عدم السماح بالعودة، كما حصل مع الفلسطينيين في عام 1948» (ص 22). ويبقى من لادولة له ضحية على الدوام للمشكلات السياسية والأحداث الدولية، كما أنه يفقد الأمان حتى في حال حصوله على جنسية أخرى. وهناك ممن لا دولة له من يرفضون محاولات الاستيعاب وإنشاء وطن بديل، وذلك لعدم التنازل عن الحق التاريخي في الوطن الأصلي. ومن ثم، تصبح اللادولة حالة مستمرة تعيشها شعوب الشتات، وتتولد منها ممارسات و/أو مؤسسات، تعمل على البقاء (ص 23-25).

قبل عام 1948، برزت العائلة الفلسطينية بوصفها وحدة أساسية⁽⁵⁾، على مستوى التنظيم الاقتصادي والحرفي، حيث يتشارك أفراد العائلة الواحدة في المصلحة وتتوارث الحرفة، وعلى مستوى النمط الإسكاني القائم على توسع رقعة البيت لتتحول إلى حي/ قرية بالتوازي مع توسع العائلة، وكذلك

(5) يتفق مع ذلك بيرديغون، الذي يرى أن للعائلة الفلسطينية استثنائية ما؛ كونها المؤسسة المستمرة التي تشكل التجربة الفلسطينية، ينظر: سيلفان بيرديغون، «المؤسسة الوحيدة الباقية والقبالة للحياة (الأُسرة)»، في: كنودسن وحفي، ص 315-339.

مع بداية نيسان/ أبريل 1948 - قبل الإعلان الرسمي عن دولة إسرائيل - استولت المنظمات الصهيونية، من خلال هجماتها التي تُعرف بـ «خطة داليت» (10 آذار/ مارس 1948)، على معظم المناطق الساحلية، بما فيها مناطق غير ممنوحة لليهود بموجب قرار التقسيم 1947، وقد هُجّر على إثرها نحو ثلاثمئة ألف فلسطيني. وكان الفلسطينيون حينها بلا أسلحة ولا قدرات دفاعية، أملين أن يحصلوا على الدعم من البلدان العربية التي ما فتئت تطمئنهم، إلى أن وقعت معجزة «دير ياسين» (9 نيسان/ أبريل 1948) التي قطعت هذه الآمال، ونشرت الذعر في مختلف أنحاء البلدات الفلسطينية؛ ما أدى إلى هروب الكثير من الفلسطينيين إلى أماكن آمنة، مثل غزة، ومصر، ولبنان، وسورية، والأردن. وتكررت المجازر ذاتها، في مناطق أخرى، على غرار هجوم قوة من الإرغون ومنظمة الهاغاناه على حي المنشية في يافا (24 نيسان/ أبريل 1948). وعلى خلاف الغالبية الفلسطينية، أدرك القليل فقط أن مرحلة مستمرة من الشتات قد بدأت، وأن العودة لن تكون خلال أيام (ص 58-61). وبعد مرور أقل من شهر على دخول الجيوش العربية في 15 أيار/ مايو 1948، وعدد قواتها لا يتجاوز 28 ألف جندي، وقعت الهدنة الأولى. وكان غالبية الفلسطينيين لم يغادروا قراهم بعد، إلى أن نفذت مجازر في حقهم وطردتهم الإسرائيليون، ومثال ذلك ما حدث في اللد والرملة (12 و13 تموز/ يوليو 1948) بعد انسحاب الجيش العربي المفاجئ. وبذلك، بعد حياة مزدهرة في فلسطين، بدأ الفلسطينيون

أن العنصر الفلسطيني مفيد للتطوير والتنمية للاستقلال عن بريطانيا. (4) استخدم الفلسطينيون العائلة وسيلة رئيسة للبقاء الإنساني والاجتماعي. (5) المجتمع الفلسطيني كان سيتفكك وينصهر في البيئة العربية لولا دور العائلة في البقاء. (6) تعاملت العائلة الفلسطينية مع الأزمة بمرونة، واستوعبت التغييرات وتأقلمت معها. (7) التفاهم في مستوى الأزمة يحول الشبكة الموسعة إلى شبكة فعلية. (8) نشطت العائلة الفلسطينية من خلال شبكاتها في صياغة وجودها وعلاقاتها الاجتماعية. (9) العائلة عامل مستقل يستوعب التغييرات ويؤثر فيها (ص 52-54).

يقدم المؤلف في الفصل السابع مادةً تحليليةً أنثروبولوجية غنية بالوظائف والأنماط السلوكية للشبكات العائلية الفلسطينية، والعلاقة بينها والقرى والمدن التي انبثقت منها، وذلك من خلال نموذج الكويت. فالشبكة العائلية تشدّ أواصر العلاقات من خلال الالتزامات والواجبات التقليدية، ومن خلال التنشئة الاجتماعية تبقى العلاقة قائمة مع الوطن الأصلي (ص 161-162). وللحصول على الأمن العائلي الجماعي، كان أعضاء الأسرة في الكويت والواصلون الجدد يبحثون عن بعضهم للعيش متجاورين، وتفعيل الشبكة العائلية الفعلية معيدين بذلك أجواء القرية الفلسطينية التقليدية، ومن ذلك يتبين دور النمط السكني في تعزيز الشبكات واستمرارها (ص 163-165).

قبل عام 1967، كان مجتمع الفلسطينيين في الكويت أغلبه من غير المتزوجين. لكن بعد عام 1967، ومع زيادة موجات اللاجئين، وتأسيس عائلات النواة في الكويت أيضاً، ازدهرت علاقات التزاوج في مجتمع الشتات، وهو أمر

على مستوى العمل السياسي والأحزاب التي تكون فيها القيادة عائلية، مثل آل الحسيني وآل النشاشيبي (ص 25-27). أما بعد عام 1948، فتمزقت الوحدة المادية للعائلة الفلسطينية، واختلقت أنماط اندماج الفلسطيني في الشبكة الاجتماعية. وفي ذلك، يدرس المؤلف الشبكة التي ينخرط فيها النازح، من خلال مستويين؛ مفهوم الشبكة الموسعة - بحسب تعريف أرنولد ل. إبستين Arnold L. Epstein - التي ورد فيها قوله: «مجموعة واسعة من العلاقات بين الأقران وأبناء الحي الواحد والقرية الواحدة سابقاً، وهو يشمل روابط الصداقة. هذه المجموعة ليست بالضرورة شديدة الترابط في مجملها»، ومفهوم الشبكة الفعلية، وهي «مجموعة من العلاقات الكثيفة وشديدة الانتظام، التي يمكن أن تكون قائمة بين أفراد تجمعهم روابط العائلة والقرابة والصداقة والجوار». ويتنقل الأعضاء بين هاتين الشبكتين، نظراً إلى عوامل و/ أو أزمات مختلفة (ص 38-39). وينظر إلى أهمية دور الشبكة، كون أعضائها هم من يدعمون بعضهم بعضاً، ويوفرون سبل الاستقرار والبقاء والرعاية الاجتماعية، وهم من يؤثرون في دورة الحياة الطبيعية للأسرة، والذين يتقاربون في السكن، وغالباً تكون بينهم صلة قرابة، أو هم أنفسهم أبناء البلدة القديمة (ص 43).

ومن خلال مراجعة الأدبيات النظرية حول الشبكة واللدولة والعائلة، وحول الشتات الفلسطيني، يضع المؤلف مجموعة من الاقتراحات/ الفرضيات للدراسة: (1) نشأ الشتات الفلسطيني الأول في الكويت بسبب توافر الظروف الاجتماعية والاقتصادية. (2) نشأ الشتات الفلسطيني في الكويت بسبب إرادة الكويتيين استيعاب الفلسطينيين. (3) رأت النخبة الكويتية

هذه الأموال إلى من يحتاج إليها من العائلة، ليس فقط لمن هم داخل الكويت، بل في مناطق الشتات الأخرى، وداخل فلسطين أيضاً، بحيث يصبح الصندوق عابراً للأوطان (ص 204-205). وكذلك، ظهرت المراكز العائلية - أو ما يسمى ديوان العائلة - التي تؤدي إلى تفعيل الشبكة العائلية الفعلية والموسعة (ص 206-208).

ثانياً: هجرة النخبة الفلسطينية

يشير المؤلف إلى أن الوافدين الأوائل إلى الكويت لم يكونوا من النخبة الفلسطينية التقليدية؛ كون النخبة التقليدية من العائلات فقدت مصادر نفوذها السياسية والاقتصادية بعد عام 1948، وعاشت على انتظار العودة. وهذا الأمر قلص استثماراتها وزاد من مسؤولياتها، واضطرها إلى البحث عن العمل مثل غيرها (ص 112-113). ويرصد المؤلف ست استجابات، عملت على بنية الشتات الفلسطيني في الكويت؛ أي حولته من لجوء ونفي مؤقتين إلى شتات مستمر: أولاً، بعد دمار النكبة ومحاوله التأقلم مع ظروف اللجوء، أخذ الفلسطينيون يبحثون عن العمل، وكان الخيار هو البلدان العربية. ولتحقيق ذلك، كان عليهم ملء الفراغ الذي تحتاج إليه هذه البلدان فاتجهوا إلى دول الخليج ومنها الكويت، التي اتجه إليها مئات الفلسطينيين المتعلمين بين 1948 ومطلع الخمسينيات، وذلك كونها «الأكثر انفتاحاً في منطقة الخليج في ذلك الزمن، والأكثر قومية وعروية واستعداداً للتقدم والنهوض منذ عقود ما قبل النفط»، كما أن النخبة الكويتية رأت في قدوم الفلسطينيين العرب عاملاً للحفاظ على عروبة الكويت، في خضم استقلالها عن بريطانيا. ثانياً، بعد الوصول إلى الكويت، بدأت هذه النخبة

أدى إلى مأسسته. وباتت احتفالات الزواج، إضافةً إلى المناسبات الاجتماعية المختلفة، من أهم الأحداث التي تجمع الفروع العائلية من شتى أماكن وجودها (ص 165-170)، لتعكس هذه الروابط الاجتماعية القوية بين أبناء القرية الواحدة آليات التضامن والالتزام الوطني تجاه فلسطين، وعدم ضياعها من ذاكرتهم (ص 186-187)، وخصوصاً أن ذاكرة جيل ما بعد فلسطين هي «متخيلة»، فارتباطهم الحي بهذا الماضي المتخيل يتم من خلال الجيل الذي عايش النكبة⁽⁶⁾. وعليه، فإن تفعيل الشبكة الاجتماعية العائلية يكون بمنزلة إعادة إنتاج للهوية؛ وذلك كون الهوية ليست معطى تاريخياً، بل يعاد تشكيلها باستمرار بوصفها بنية تتعدل وفق المصلحة الجماعية⁽⁷⁾.

ومع الضغوط الاقتصادية⁽⁸⁾ المتراكمة في منتصف السبعينيات، وفي ظل وجود الشبكات العائلية الفعلية والموسعة، ظهرت صناديق القرى والبلدات في الشتات الكويتي - مثل الصناديق الموجودة في القرى السابقة - وتبين هذه الصناديق توسع دور العائلة في الشتات، حيث إن جهد الدعم الاقتصادي صار عائلياً ومماسساً؛ إذ يدفع كل فرد في العائلة مبلغاً مالياً شهرياً، وتذهب

(6) Anaheed Al-Hardan, *Palestinians in Syria: Nakba Memories of Shattered Communities* (New York: Columbia University Press, 2016), pp. 114, 130-131, 156.

(7) عزمي بشارة، طروحات عن النهضة المعاقبة (بيروت/ لندن: رياض الريس للكتب والنشر، 2003)، ص 175-176.

(8) يرى ساري حنفي أن مشكلة اللاجئين في بلدان مجلس التعاون لدول الخليج العربية اقتصادية، لا ثقافية، ينظر:

Sari Hanafi, «Rethinking the Palestinians Abroad as a Diaspora: The Relationships between the Diaspora and the Palestinian Territories,» in: André Levy & Alex Weingrod (eds.), *Homelands and Diasporas: Holy Lands and Other Places* (California: Stanford University Press, 2005), pp. 97-122.

ذلك - ولا سيما بسبب الوضع المادي السيئ - خطت نساءً فلسطينيات المنحى ذاته في إعالة الأسرة والاعتراب والابتعاد عن العائلة أول مرة، ومنهن من ذهبن إلى الكويت. وبذلك، تغيرت النظرة التقليدية إلى المرأة بعد عام 1948، الأمر الذي مثل النزعة العائلية الأولى. ومن جهة أخرى، فإنّ الفلسطينيين الذين يصلون أولاً إلى الكويت يكونون بمنزلة «جسر العبور» إلى الشبكة الاجتماعية في تأمين الوظائف، وبذلك تكونت «الهجرة المتسلسلة» (ص 103-107). ورغم تكيف الوافدين الأوائل مع الوضع المادي بعد حدث النكبة، فإنهم لم يتكيفوا نفسياً؛ إذ إنّ العلاقة بفلسطين وحلم العودة إليها هو ما شكّل الوجود الجماعي للفلسطينيين في الكويت، وحافظ على هويتهم التي تركز على مقاومة المشروع الصهيوني، وخلق روابط ضرورية لتغيير واقع النكبة. وتفاعلت هذه الهوية السياسية مع ازدياد التهميش العربي للجماعة الفلسطينية، والحاجة إلى إثبات الوجود سياسياً؛ ما أدى إلى تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية (1964)، وانطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة (1965) (ص 107-109).

وعلى الرغم من أهمية التحليل الأنثروبولوجي الذي يتناول الدور السياسي للبنى الاجتماعية والعلاقات الوشائية أو التضامنية في الكويت التي حاولت تعويض حالة اللادولة، فإنه يؤخذ على تحليل المؤلف مغالاته في تقدير دور العائلة والشبكة الاجتماعية بشأن صنع الهوية والحفاظ عليها؛ إذ إنّ العائلة وحدها لا تصنع الهوية الوطنية الجماعية، ولا بد لفهم نجاح المجتمع الفلسطيني في الحفاظ على وحدته وتماسكه، في مختلف مناطق وجوده، من عدم إغفال الدور الذي تؤديه المؤسسات السياسية، وأهمها وأبرزها

المثقفة ببناء روابط أسست لمجتمعهم الجديد. ثالثاً، بعد الحصول على وظائف في الكويت، صاحبهم هاجس المهنية العالية لكسب ثقة أرباب العمل، وتعزيز الثقة بالاعتماد على كفاءاتهم وتمكنوا من ذلك، فحصلوا على وظائف ثابتة. رابعاً، بناءً على الهاجس السابق، تولد قلق تحسين المستوى التعليمي بصفته متطلباً للبقاء. خامساً، ثمة استجابة - وهي استجابة محورية - تمثلت في المسؤوليات العائلية، بإنقاذ أفراد العائلة ولمّ الشمل. سادساً، استعادة النخبة الفلسطينية لهويتها والتعبير عنها (ص 69-72).

ويذكر المؤلف، من خلال عدة تجارب قابلها، أن الشبكات الاجتماعية، بما فيها من علاقات شخصية وعائلية ومعارف، أدت دوراً مهماً في العثور على الوظائف؛ ما ساهم في هجرة الكثير من الفلسطينيين إلى الكويت، وكان أغلبهم في أوائل وأواسط العشرينيات (ص 74-80). وقد ساهم الفلسطينيون، وتركوا أثراً تنموياً في الكويت، سواء كان اقتصادياً أو إدارياً أو عسكرياً أو تربوياً، وشكلوا وزناً مهماً في القوة العاملة. فمثلاً، شكّل الفلسطينيون، في عام 1965، 48 في المئة من الموظفين في القطاع العام، و41.4 في المئة في القطاع الخاص. ومع سياسة الحكومة الطويلة الأمد المتمثلة بـ«تكوين» القطاع العام، استقال العديد من الفلسطينيين من وظائفهم الحكومية العليا، واتجهوا نحو القطاع الخاص (ص 84-88).

ويرى المؤلف، أنه لولا التماسك العائلي، لما بقي الوجود الجماعي الفلسطيني أو استمر. فما جاء بالوافدين الأوائل إلى الكويت هو سعيهم لإنقاذ عائلاتهم وتحسين ظروفهم المعيشية، وكذلك دعم إخوتهم في المسار التعليمي. وفي

عملية غير الزراعة، وكان يُعَيَّن مساعدًا، وهكذا تكون الوظيفة تدريبية في الوقت نفسه. لكنّ الفلسطينيين، في المقابل، عملوا للحصول على شهادة ثانوية أو جامعية، كما مولوا تعليم أشقائهم الأصغر سنًا، ومن ثم ساعدوا في استقدامهم إلى الكويت، وذلك بعد أن رأوا أن الفرص تكون متاحة أكثر بالنسبة إلى من يملك تعليمًا أفضل. ومع مرور الوقت، صار الفلسطينيون فئة نوعية؛ متعلمة وحرفية (ص 135-141).

رابعًا: الفلسطينيون بين نارين: غزو العراق للكويت

يرى المؤلف أنه رغم العلاقات الوثيقة بين الفلسطينيين والكويتيين، فإن عدة مخاوف عكرت هذه العلاقات، وأنّ خوف الكويتيين تبلور بعد حرب 1973 من أن يقود الحل السياسي الإقليمي إلى بقاء الفلسطينيين في الكويت، وقد كانوا يشكلون في ذلك الوقت أكثر من نصف المواطنين. ومنذ السبعينيات، بدأت السلطات الكويتية في فرض قيود على التأشيرات وتصاريح العمل والتعليم لغير الكويتيين، وبدأت كذلك في تنفيذ سياسة «التكويت» في القطاع الحكومي الذي كان الوجود المدني الفلسطيني يشكل منافسًا له. وإلى حين الغزو العراقي للكويت (2 آب/ أغسطس 1990)، كان الفلسطينيون أكثر الوافدين إلى الكويت نفوذًا، كما كانت الكويت أكثر البلدان العربية إيجابية في التعامل مع الفلسطينيين، وأكثر الدول دعمًا للاتفاضة الفلسطينية (1987) (ص 239-243).

ولما انفجرت الأزمة في آب/ أغسطس 1990، انقسم المجتمع الفلسطيني في الكويت؛ نظرًا إلى الصراع بين القيم القومية والمصالح المعيشية -

منظمة التحرير الفلسطينية. وفي حالة الكويت، لا يمكن كذلك إغفال دور السياسات الكويتية، التي خلّفت للعديد من الحالات الأخرى، دعمت تشكيل أطر سياسية ومؤسساتية فلسطينية على أرضها قبل احتلال فلسطين.

ثالثًا: هجرة الفلاحين الفلسطينيين

كان وضع الفلاحين الفلسطينيين أصعب من وضع باقي الشرائح الاجتماعية المتعلمة؛ وذلك لأن أغلبهم لا يحترف إلا الزراعة، ومن ثم فإنّ الخيارات أمامهم محدودة من الناحية الاقتصادية. أما على المستوى الاجتماعي، فقد اعتادوا العيش قبل عام 1948 وفق نموذج العائلة الموسعة؛ حيث يسكن الآباء والأبناء المتزوجون في البيت نفسه، وحيث تتكون القرية من مجموع عدد من العائلات. وقد واجهت هذه الفئة صعوبة في التأقلم، لما وصل أفرادها إلى الكويت في مطلع الخمسينيات، وذلك بسبب تحولهم إلى مهن أخرى، ولعدم إمكانية استصدار تأشيرات السفر لهم من جانب البريطانيين أيضًا، فكانت طريقهم إلى الكويت غير شرعية؛ أي عبر التهريب. وما ساعدهم في البقاء والحصول على وظائف، هو لجوؤهم إلى الشبكة الاجتماعية، وقد مثل الفلاحون وعائلاتهم في الستينيات والسبعينيات 60 في المئة من الجالية الفلسطينية في الكويت (ص 119-121).

إنّ ما ساهم في توظيف هؤلاء الفلاحين هو جهد المسؤولين الكويتيين وتعاطفهم معهم، وجهد الرواد الأوائل من المتعلمين الفلسطينيين؛ فمن كان من الفلاحين - وأغلبهم كان في بداية العشرينيات أو أصغر - لم يكن يملك خبرة

الشفوي بالخروج باستنتاجات إحصائية، وهي تساعدنا بصعوبة بالغة على ملء فجوات بحثية لا يمكن دراستها من خلال منهجيات العلوم الاجتماعية بسبب غياب الأرشيف؛ لهذا السبب تتسم الأبحاث المعتمدة أساساً على التاريخ الشفوي بالتحفظ المنهجي وتجنب القطعيات.

مع بدايات عام 1992، تقلص عدد الفلسطينيين من 150 ألف إلى 30 ألف شخص، وكان نجاح هؤلاء في البقاء - سواء من أصحاب الجنسية الأردنية أو الذين لديهم وثيقة سفر - يعود إلى كفلائهم الكويتيين، غير مئات المقيمين غير الشرعيين من حملة الوثيقة المصرية من قطاع غزة، وذلك لأنه لا مكان يستطيعون الذهاب إليه، ولم يشمل هذا العدد الفلسطينيين من حملة الجنسيات الأخرى؛ كالجنسية الكويتية أو الأميركية مثلاً. وقد بقي القيد الأمني (شبهة التعامل مع النظام العراقي أيام الغزو) عائقاً أمام توظيف العديد من الفلسطينيين، وخصوصاً أصحاب الوثائق المصرية (ص 292-295). وبعد عام 1991، صارت الكويت تتعامل مع الفلسطينيين من أصحاب الجواز الأردني بصفتهم أردنيين، وعادت العلاقات الرسمية بين الفلسطينيين والكويت عام 2001، وافتتحت عام 2013 سفارة فلسطين في الكويت (ص 296-299).

خاتمة

يقدم المؤلف في كتابه صورة بانورامية قائمة على بحث ميداني ومقابلات مسجلة عن جانب غير موثق من حياة الجالية الفلسطينية في الكويت، مسلطاً الضوء على دور العائلة الفلسطينية المركزي والشبكات الاجتماعية العابرة للأوطان، التي عملت على البقاء الاجتماعي - الاقتصادي، وساهمت

وفقاً لخبرات كل من هذه المجموعات في الكويت - إلى ما يلي: أولاً، «فلسطينيون متعاطفون مع العراق بنسب مختلفة»، كون هذا الحدث يمكن أن يفيد العرب والقضية الفلسطينية، وكان أغلب أفراد هذه الفئة من ذوي أوضاع اقتصادية متدنية، وارتفعت حدة موقفهم مع ربط الانسحاب من الكويت بانسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وقطاع غزة. ثانياً، «فلسطينيون معارضون للغزو، متعاطفون مع الكويت ومتيقنون من رعونة الخطوة العراقية»، وكانت نسبتهم داخل الكويت في بداية الغزو لا تقل عن 30 في المئة؛ ومن ثم أخذت في الارتفاع، وخصوصاً مع ما تعرض له الكثير من الفلسطينيين من الجيش العراقي، ووضوح نية العراق من هذا الغزو. ثالثاً، «آخرون اتخذوا سبيل الحياد متيقنين أن العراق سيخرج من الكويت خلال أيام»، وهذا الموقف بُني على الرغبة في عدم التدخل، وهذه الفئة لم تشارك في النشاطات السياسية الفلسطينية حتى قبل الغزو، وكانت نسبتها 30 في المئة، لكنها تحولت إلى رفض الغزو، بعد رؤية الممارسات العراقية في الكويت (ص 244-248).

ورغم إمكانية هذا التأطير لمواقف الفلسطينيين من الغزو العراقي للكويت إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية، فإن ثمة إشكالية منهجية تتبين هنا؛ فكيف يمكن قياس الرأي العام الفلسطيني والخروج بتعميمات ونسب مئوية، بناءً على مقابلات شخصية وحوارات مع فلسطينيين لا تتجاوز 110 من المقابلات؟ وينسحب الأمر نفسه على الملاحظات الإحصائية التي أوردها الكتاب في تصنيفه للفلسطينيين البالغ عددهم مئتي ألف والذين غادروا الكويت في فترة الغزو، والذين وصفهم المؤلف بأنهم معارضون للاحتلال (ص 259-260). لا تسمح منهجية التاريخ

في الحفاظ على الهوية وإعادة إنتاجها. ومن خلال دراسته لحالة الكويت التي لها خصوصية، مقارنةً بأماكن وجود الفلسطينيين الأخرى، يقدم الكتاب أطروحةً يمكن استخدامها إطاراً نظرياً لدراسة تجربة الفلسطينيين في أماكن شتات أخرى، ببحث جوانب التضامن الاجتماعي وديناميات عمل الشبكات الاجتماعية. كما أن الكتاب يتطرق إلى ملفات غير مبحوثة في الشتات الفلسطيني، منها هجرة الفلاحين إلى الكويت وطرق التهريب، إضافة إلى بحثه في العلاقة بين الفلسطينيين والكويتيين، إبان الغزو العراقي للكويت، الذي حاول فيه كسر المغالطات حول موقف الشعب الفلسطيني من الغزو، فضلاً عن تبيينه وجه التضامن بين الشعبين أثناء الغزو وبعده.

References

المراجع

العربية

- البرغوثي، سمير. «الفلسطينيون في الخليج». مجلة تسامح. العدد 19 (2007).
- بشارة، عزمي. طروحات عن النهضة المعاققة. بيروت/ لندن: رياض الريس للكتب والنشر، 2003.
- بلدان مجلس التعاون لدول الخليج العربية: التحديات الاجتماعية والاقتصادية. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016.
- كنفاني، غسان. رجال في الشمس. الآثار الكاملة. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1972.
- كنودسن، آري، وساري حنفي. اللاجئين الفلسطينيون في المشرق العربي: الهوية والفضاء والمكان. ترجمة ديما الشريف. مراجعة وتقديم جابر سليمان. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.

الأجنبية

- Al-Hardan, Anaheed. *Palestinians in Syria: Nakba Memories of Shattered Communities*. New York: Columbia University Press, 2016.
- Levy, André & Alex Weingrod (eds.). *Homelands and Diasporas: Holy Lands and Other Places*. California: Stanford University Press, 2005.